خبز بالمجان !

قصة : د. سيد شعبان

تحسست بطاقة هويتي، لا أتذكر أين وضعتها ؛ كثيرا ما أوصتني أمي أن أرتب أشيائي قبل السفر، اعتلت ذاكرتي بمرور الزمن، احتلت على هذا بأن أدون في دفتر اليوميات ما أحتاج إليه، ربما سقط أثناء خروجي، لم يعد يهتم بي أحد، أخشى أن يحدث لي ما لا أتوقع، صعدت سلم القطار، ثمة عين تترقبني، أقبل نحوي محصل التذاكر، يطلب مني بطاقة الهوية، هذا مثير للدهشة، اعتدت أن يطلب النقود، يتفحص وجهي، سألني عن وجهتي، بحثت عن دفتري، ترى أين وضعته؟

كانت أمي تطبخ الأرز، تضع في الإناء حبات من البازلاء أو الفاصوليا، مع قطع الدهن تختزنها من أضحية العيد، في الواقع بات كل شيء بعدها يفقد قيمته، في تلك البلاد لايمكن لرجل مثلي أن يشتهي تلك الوجبة، صارت في متناول أصحاب الدرجات الأولى، يتندر علي مدير العمل، يتفاخر بأنه يتناولها أكثر من مرة في الأسبوع؛ علني في العيد الكبير أن أحظى بحبات منها!

بدأ يرتاب في، دوت صافرته، في لمح البصر أمسك بي رجل صخم، يكاد يفترسني، دارت بي الأرض!

أجبته:

ليست لدي جهة ما لأذهب إليها، أبحث عن مكان يهب الذين يسكتونه أرغفة خبز بالمجان، لا مانع لدي أن أكتفى بها، هنا تجمع ركاب العربة، يطلبون من محصل التذاكر أن يصف لهم ذلك المكان!

انفرجت شفتا الرجل – ذي الجسم المكتنز لحما – عن ابتسامة، تركني ثم انضم إلينا!

حاول أن يصرف هؤلاء عن ذلك الأمر؛ ثمة أمر ألا يفعل هذا؛ ستمتليء المدينة العتيقة بطالبي أرغفة الخبز المجانية، لن تستطيع المخابز أن تسد جوعهم، أفلح رجل السكة الحديد في عزل عربتنا عن بقية القطار؛ المثير للدهشة أننا سمعنا بقية الركاب في العربات الأخرى تطالب بمثل هذا؛ علها شائعة أطلقتها جهة معادية، هذا ما ترامى إلى أذني من مذياع صغير تحمله الفتاة ذات الدلال!

ترى هل تكفي أرغفة الخبز وحدها في إشباعنا؛ تساءل أحد الذين انضموا لتلك الجوقة؛ اقترح آخر أن توزع بضعة حبات الفاصوليا البيضاء، إنها وجبة طعام متكاملة، بدأت أسرد عليهم حكايات عن بلاد تحيط بنا، فيها مجاعات رغم أن النيل بها يجري، ساعتها وجدت عصا غليظة شجت رأسي، خلعت الفتاة ذات الدلال غطاء رأسها الوردي ومن ثم جعلته ضمادة منعت نزيف الدم؛ كم كانت يدها رقيقة!

حاولت أن أشكرها، ابتسمت في غير اهتمام، يبدو أنها اعتادت فعل هذا، كثيرة هي المواقف التي تجعل المرأة متبلدة المشاعر، انتابني شك أن تكون دمية من البلاستيك الشفاف!

لا أدري كم مضى من الوقت؛ يخيل إلي أن الفتاة ذات الدلال استلت ساعة يدي، لم يعد شيء بلا مقابل، مضى زمن الشعارات التي خدعت البسطاء من الناس، تحول هؤلاء إلى قطع من الحجارة المتناثرة!

أخذ الذين اشتهوا أرغفة الخبز بالمجان في الانصراف كل إلى مقعده من العربة المنزوية بعيدا عن رصيف المحطة، اعتدنا أنها تدوي فيها الريح، لا تمنع مطرا ولا تبرد حرا، أشبه بقبو حديدي حشرنا فيه، أخذتني سنة من النوم، رأيت أمي تفت لي كسرات خبز في إناء مملوء باللبن!

يدندن شيخ يتعمم بشال أخضر:

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!